السلم والحرب

(تابع ما قبلهُ)

وفكرة السلم قديمة جدًّا يرجع تاريخها الى الجاهلية في بلاد اليونان فقد عثر في اطلالها على آثار عديدة ثبت منها ان القبائل التي كانت تعبد الهًا واحداً كانت تتضامن وتتعاون على حماية هيكل معبودها ولا يسمح لاحداها بشن الغارة على الاخرى. ثم تدرجت من ذلك الى ان صارت تعقد مؤتمرات يحضرها مندوبوها فيقررون ما يصلح شأن قبائلهم ويعلي منارها ويوطد اركان الاتفاق بينها ويعزز قوتها حتى لا تجرأ القبائل الاخرى المتضامنة على الاعتداء عليها. وكانوا يسمون هذه المؤتمرات « المجامع الامفستونية » وكانت تحاكي في غاياتها ومراميها المؤتمرات التي تعقد الآن بين الدول الاوربية المتحالفة او المتفقة

وجاءت السلطنة الرومانية فربطت معظم اجزاء العالم بعضهُ ببعض بفضل الحكم المركزي الذي سارت عليهِ فعمَّ السلام فيهِ زمناً طويلاً

وقام على اثرها النظام الاقطاعي وقد كان الغرض منهُ تضامن اصحاب الاقطاعيات الذين يدينون لملك واحد وتآزرهم في حالتي الدفاع والهجوم لا تأييد السلم مباشرة ومع ذلك فقد كان في تضامنهم شيء من الاتحاد الذي هو اقوى اركان السلم

وكان نفوذ كنيسة رومية في ذلك الزمان عظيماً جدًّا لبذلتهُ في توثيق عرى التصافي بين امراء الاقطاعيات وسنت شرعة سنة ١٠٣١ لمنع القتال وسفك الدماء في الايام المقدسة والاعياد منها « هدنة الله » في الارض

وكرت الايام وتعاقبت السنون الى ان ارتقى الملك هنري الرابع عرش فرنسا فرأى بدهائهِ وبعد نظرهِ انهُ لا بد من وقوع الحرب بين ممالك اوربا الكاثوليكية وممالكها البروتستانية فخطر لهُ ان يوفق بينها ويحول دون وقوع الخطر الذي كان يتهددها فوضع مشروعاً لذلك سماهُ المؤرخون « المشروع العظيم » ولكن الاحوال لم تمكنهُ من تنفيذهِ فنشبت الحرب بعد خمسة عشر عاماً وظلت سجالاً ثلاثين سنة وهي الحرب المعروفة « بحرب الثلاثين سنة »

واشرقت انوار التمدن في اوربا فنبه اهلها من غفلتهم ورأى سكان البلدان التي كانت منقسمة الى امارات عديدة لا يجمع بينها سوى وحدة اللغة وتماثل العادات والاخلاق ان تفرقها لا يكسبها الاَّ الخسران والامتهان فاجمعت على الاتحاد لتصير أمة واحدة حرة تدافع

عن كيانها وتذود عن مصالحها من اعتداء المتعدين وطمع الطامعين بدلاً من ان يتحكم فيها الغرباء ويستبدوا بافرادها ويستنزفوا اموالها . وكان الشعب السويسري في مقدمة الشعوب التي اتحدت فاستجمع قواه التي كانت منصرفة الى مناواة بعضه بعضاً وهب في وجه التمدن فنزع نيره الثقيل عن عاتقه ثم عمد الى اصلاح شؤونه الداخلية وجرى على سنة الارتقاء حتى صار من اعلى الشعوب كعباً في التمدن واشدها تمسكاً باهداب الحرية

وذاعت تعاليم جان جاك رسو وفولتير وغيرهما من دعاة الحرية ووصلت الى العالم الجديد فاستنارت بها اذهان اهله واتفق ان سكان بعض الولايات التي كانت خاضعة لانكلترا في اميركا الشمالية استاؤوا من ضريبة ضربتها عليهم الحكومة الانكليزية فثاروا عليها واستقلوا عنها ووضعوا الاساس الذي شيدت عليه جمهورية الولايات المتحدة كما نعرفها الآن

واشتد ضغط الامم المجاورة للممالك الالمانية وامارتها المختلفة عليها حتى كاد يمحقها ويقضي عليها فاتحدت كلها للذود عن كيانها فقهرت عدوتها الكبرى فرنسا ثم عكفت على اصلاح شؤونها وتعزيز قوتها فصارت في طليعة البلدان عزة ومنعة

وقد نتج عن اتحاد البلدان التي ذكرناها وغيرها مما لم نذكره مثل ايطاليا ان عدد الممالك او الامارات او الولايات التي كان في طاقتها ان تشهر الحرب وتخوض غمارها نقص الآن كثيراً عما كان عليه منذ قرن ونصف والا فلو ظلت الولايات الواقعة في البلاد التي تسميها الولايات المتحدة من غير ان تتحد كلها معاً تحت راية واحدة وسلطة عليا واحدة لكان منها الآن ٥١ ولاية كل منها تستطيع محاربة جاراتها . وقد كانت المانيا قبل الاتحاد الالماني تتألف من ست وعشرين مملكة وامارة وولاية ما عدا المدن الحرة وكانت الحرب بينها سجالاً وكذلك ايطاليا فانها كانت تتألف قبل اتحادها من ١٢ مملكة وامارة وجمهورية لا تجمعها الا جامعة العداوة . ولو حسبنا ما نقص في عدد المتحاربين في العالم بفضل اتحاد كل من هذه الامم الثلاث فقط لبلغ اكثر من ٨٦ بلاداً كانت كلها تستطيع شهر الحرب وخوض غمارها

ولم يقتصر هذا النقص على عدد البلدان المتحاربة فقط بل تعداه الى المساحة التي يمكن ان تقع فيها الحرب ايضاً . فقد اتفقت الدول صاحبة الكلمة المسموعة على عد بعض البلدان كسويسره والبلجيك ولكسمبورج وتروج في اوربا ووادي نهر الكونغو وقنال السويس في افريقية ومنطقة البحيرات في اميركا الشمالية محايدة فلا تشهر عليها حرب ولا يقع فيها قتال الا اذا كان داخلياً لاخماد ثورة او قمع فتنة او تسكين اضطراب

بقي التوازن الدولي واقتسام الدول هذه الايام الى محالفات واتفاقات من اجل ذلك .

وليس هذا التوازن في الحقيقة الاَّ حفظ التكافوء بين الدول حتى لا تشتد شوكة احداها او بعضها ويستفحل امرها فتهدد سلامة سائر الدول كما حدث في القرون المتوسطة لما اشتدت المنافسة بين فرنسا واسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة وتعاظمت الى حد اضر بسائر البلدان الصغيرة المجاورة لهن ضرراً بالغاً كان يهدد كيانها

وقد عاد هذا التوازن بفوائد عديدة على العالم كاجتماع كلة دول اوربا على بعض الشؤون العظيمة واهمها كلها المسألة الشرقية واتفاقها على مسائل كثيرة عامة كمسألة سواحل غرب افريقية في مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ ومسألة تحريم العبيد في مؤتمر بروكسل سنة ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ومسألة المغرب الاقصى في مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ التي كادت تجر على اوربا حرباً ضروساً

والفضل في ايجاد هذا التوازن عائد بالاكثر الى نبوليون الاول فانهُ قضى على ما كان باقياً في ايامهِ من النظام الاقطاعي ورسم خريطة اوربا السياسية كما هي الآن وفتح عيون الدول الى وجوب التعاضد والتآزر منعاً لتفوُّق احداها على الاخرى كما تفوقت فرنسا في عهدهِ على سائر الدول وكانت توقع فيها الذعر والرعب وتهدد كيانها

وقد خدم هذا التوازن العالم في حربي البلقان الاولى والثانية خدمة جليلة فجاءهُ من شر مستطير كان منهُ قاب قوسين او ادنى

وكانت الدول الخمس العظمى في اوربا مستأثرة بالمؤتمرات الدولية في اول الامر ثم اشركت فيها الدولة العلية سنة ١٨٥٦ فالولايات المتحدة سنة ١٨٧٨ فاليابان في الايام الاخيرة وصارت تدعو من حين الى آخر بعض الممالك الصغيرة الى ارسال مندوبين من قبلها لحضور بعض المؤتمرات التي تعقدها

فيرى من كل ما تقدم ان منزلة المؤتمرات من الدول منزلة الجمعيات الوطنية الكبرى التي تجمعها كل دولة حين حدوث امر خطير فيها (مثل الجمعية التي دعتها وزارة كامل باشا في الاستانة منذ اشهر لاستشارتها في مسألة تسليم ادرنه الى البلغاريين) وان منزلة الاتفاق الدولي من مجموع الدول منزلة مجلس نواب كل دولة من مجموع امتها

هذا هو اساس البرلمان او الندوة الدولية التي نشدها دعاة الاصلاح من عهد هنري الرابع ملك فرنسا الى يومنا هذا

وفي ٢٤ اغسطس سنة ١٨٩٨ اصدر نقولا الثاني قيصر الروس الحالي منشورهُ المشهور الذي دعا فيهِ دول الارض الى عقد مؤتمر يبحث في الوسائل التي توطد اركان السلم العام

وتنقذ العالم من ويلات الحروب وشرورها . وفي العام التالي عقد مؤتمر السلام الاول في مدينة الهاي عاصمة هولندا فحضره نواب من اسبانيا واسوج والمانيا وايطاليا والبرتوغال وبريطانيا العظمى وبلجيكا وتركيا والدنمارك وروسيا ورومانيا وصربيا وسيام وسويسرا والصين وفرنسا ولكسمبرج والنمسا وهولندا والولايات المتحدة واليابان واليونان

وبحث هذا المؤتمر في مسألة نزع السلاح او الوقوف فيه عند حد محدود براً وبحراً . ومسألة ربط الامم المتحاربة بتعهد تخفف ويلات الحرب وتقلل آلامها ومضارها . ومسألة انشاء مجلس دولي للفصل في خصومات الدول بالتحكيم . فنجح في وضع بعض القوانين لتخفيف ويلات الحروب ولاسيما في ما يتعلق بالجرحى والاسرى والممرضين وخدمة الدين فعرض على الدول المتحاربة ان تعاملهم احسن معاملة ووضع لذلك قيوداً كثيرة . ونجح ايضاً في انشاء مجلس يقضي بين الدول في الخصومات التي يتفق على رفعها اليه ليفصل بينهن فيها ولكنه فشل في الاقتراح الاول والاهم وهو نزع السلاح او توقيفه عند الحد الذي كان قد بلغه حينئذٍ فشلاً تاماً

وعقد المؤتمر الثاني في الهاي ايضاً سنة ١٩٠٧ فحضره مندوبو اربع واربعين دولة فابدلوا القوانين التي كانت تراعيها الدول عرفاً وقلاً كل دولة منها بما يلائم مصلحتها وبحسب ما لها من الحول والطول بقوانين مكتوبة تعين ما لكل دولة من الحقوق وما عليها من الواجبات لسائر الدول

واتفقت فرنسا وانكلترا في الفترة التي تخللت انعقاد ذينك المؤتمرين فابرمتا المعاهدة الاولى على فصل الخصومات التي تنشأ بينهما في المستقبل وحسمها كلها بالتحكيم الا ما كان منها متعلقاً بالشرف الوطني او المصالح الحيوية

واخذت الدول من ذلك الوقت تحذو حذو فرنسا وانكلترا في عقد المعاهدات بعضهن مع بعض لفصل خصوماتهن بالتحكيم مستثنيات من ذلك ما استثنته فرنسا وانكلترا قبلهن ولكنهن جعلن استئناف خصوماتهن الى محكمة الهاي الدولية لتفصل فيها امراً محتماً عليهن وفرضاً واجباً

ثم عقد المؤتمر البحري الدولي في لندن سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ فسن قانوناً بحرياً يسري على جميع الدول في اثناء الحرب ليعمل به في محكمة الغنائم الدولية وكان مندوبو بعض الدول قد اقترحوا من مثل هذا القانون في مؤتمر السلام الثاني

وهكذا بينما المدافع تسبك والبوارج تبنى والجيوش تزداد عدداً وعدة والصحف ترسم

خطط الحروب ونعبئة الجيوش والناس يتشاءمون من المستقبل ويتكهنون بوقوع الويلات فيه — بينما هذا يجري امام عيوننا من جهة نرى الدول من جهة اخرى تعمل مثابرة على وضع القوانين الدولية وانشاء محكمة دولية تفصل في خصوماتهن بمقتضى تلك القوانين لتقل اسباب الحروب وينتفي الخوف من وقوعها

وكان الاميركيون في طليعة القائلين بان السلم هو الحالة الطبيعية للمجتمع الانساني لا الحرب وانهُ اذا انتفت اسباب الحرب فلا يبقى لها مسوغ . اما اسباب الحرب والاغراض التي تشهر لاجلها فعديدة اهمها اذا استثنينا منها الدفاع الذاتي الخمسة التالية

اولاً حب التوسع الذي يسببهُ ازدحام السكان وضيق البلاد عن تموينهم فاذا عجزت دولة هذه حالتها عن الحصول على الاملاك اللازمة لمعاش رعاياها بالمفاوضة لم يبقَ لها الاَّ الحرب فتعمد اليها

ثانياً المطامع الوطنية او الرغبة في محو عار كسرة كبيرة

ثالثاً ما يحاولهُ الملوك والرؤساء الطامعون من تحويل الرأي العام عن مجراهُ العادي الى مجرى آخر يكون موطداً لعروشهم ومثبتاً لكراسيهم

رابعاً الحسد الذي ينشأ بين الامم من السبق التجاري والتفوق المادي

خامساً سعي اصحاب الاموال ومصانع البوارج والسلاح في تثمير اموالهم في القروض وحمل الدول على ابتياع مصنوعاتهم

وقد انقضى زمن طويل على جمهوريات اميركا الجنوبية والوسطى وهي في حرب سجال استنفدت قواها وضعضعت احوالها واساءت سمعتها في عيون دول اوربا فاجمعت عن مدها بالاموال اللازمة لترقيها ونجاحها . واشفقت حكومة الولايات المتحدة ان تتمادى تلك الجمهوريات في طيشها وغرورها فتسوء العاقبة عليهن ويتقهقرن مئات الاعوام فاوعزت الى سفرائها ومعتمديها ان يدعوهن الى مؤتمر يعقد في وشنطن للبحث في الوسائل التي تمنع وقوع الحرب بين الامم الاميركية . وعقد هذا المؤتمر سنة ١٨٨٢ فوضع مشروعاً يقضي على تلك الجمهوريات بفصل الخصومات التي تقع بينهنَّ مهما كان منشأها بالتحكيم الاَّ في المسائل التي يرى احد الفريقين المتخاصمين انها مهددة لاستقلاله ومع ذلك فقد اوجب على الفريق الثاني الاذعان للتحكيم ولو لم يكن الفريق الاول مضطرًّا الى الاذعان لهُ

وعقدت تلك الجمهوريات مؤتمراً ثانياً في مكسيكو سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ يبحث في الامور التي بحث فيها المؤتمر الاول فقر قرارهُ على تعديل المشروع الاول بحيث توافق عليهِ

جميع حكومات الامم الاميركية واعداد مشروع لتقييد تلك الحكومات بمعاهدة عامة

وعقد مؤتمر ثالث في وشنطن ايضاً سنة ١٩٠٦ حضرهُ مندوبو جميع حكومات الامم الاميركية ما عدا حكومتي هايتي وفنزويلا فبحث في ماهية القوة التي تستخدم لتحصيل الاموال من الحكومات الاميركية التي تعصى بدفع ما عليها وطرق استخدامها والحد الذي يمكن ابلاغها اليهِ وفي ارجاء البت في مبدإ التحكيم الذي بحث فيهِ المؤتمران السابقان الى ما بعد مؤتمر الهاي الثاني الذي كان موعد انعقادهِ في العام التالي

وقد زال بسبب هذه المؤتمرات الثلاثة كثير من اسباب الخلاف الذي استفحل امرهُ بين حكومات تلك الجمهوريات وحسمت انكلترا خلافها مع فنزويلا بسبب غيانا الانكليزية وفرنسا مع البرازيل بسبب غيانا الفرنسوية وسوي الخلاف القديم الذي كان بين انكلترا وفرنسا على نيوفوندلند والخلاف الذي كان بين الولايات المتحدة وانكلترا بسبب كندا وتطالبت جمهوريتا شيلي والارجنتين على فصل خصوماتهما كلها بالتحكيم . وخلاصة القول ان تلك المؤتمرات عادت باعظم الفوائد على اقرار السلم في القارتين الاميركيتين وكان ذلك من اعظم الاسباب التي اهابت بقيصر الروس الى اصدار منشورهِ المشار اليهِ آنفاً

ستأتي البقية

الادب الطبيعي

الطبيعة مدرسة جامعة تستخرج منها كنوز المعارف وتنبعث منها اشعة التعاليم الصحيحة وتخضع لاحكامها جميع الكائنات بحيث ان ما يجري في الكون من الاعمال المادية والحيوية والعقلية والادبية يسير طبقاً لنواميسها وما خالفها يتقهقر او يقف في سير نموهِ ويضعف ويموت . وهي تميل بنظامها الى اصلاح المخلوقات وتحسينها وبها تحولت خشونة الجدود الابعدين الى اللطف والكياسة ووصل الانسان الى الحالة الاجتماعية الحاضرة . على ان هذا الرقي العظيم لم يبلغ درجة الكمال وليس هو الحد الذي يقف عندهُ الناموس الطبيعي الذي لا ينفك عن العمل ويقضي باطراد التحسين . فاذا تأدب الانسان بالادب الطبيعي وهو ما يعرف بالادب المشترك او العام فلانهُ يوافق التعاليم الصحيحة التي يتعلمها من مراقبة الحياة القانونية والانحرافات المرضية لان القانون الصحي المادي والقانون الصحي الادبي لا ينفصلان ولا يختلفان جوهرياً . واذا كنا قد بعدنا كثيراً عن الجدود الاولين وكنا لا نشاهد الآن